محمد بن عبد الكريم الخطابي
في مواجهة التدخل الإمبريالي

عبد العزيز بودرة

باحث دكتوراه العلاقات الثقافية المغربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

كلما حل يوم ٢١ يوليوز من كل سنة وإلا تذكر المغاربة والعالم أجمع انتصار حفنة من المزارعين والفلاحين الريفيين على إسبانيا في معركة أنوال، هذه المعركة التي أرخت لبداية سلسلة من الانتصارات المتتالية التي حققتها المقاومة الريفية على إحدى أعرق القوى الإمبريالية الاستعمارية. كيف ساهم تكوين محمد بن عبد الكريم الخطابي في بلورة مقاومة شعبية وقفت في وجه أطماع إسبانيا؟ وكيف تمكن الخطابي من تنظيم مقاومة شرسة لم يتم القضاء عليها إلا بتحالف القوى الاستعمارية الكبرى وباستعمال أساليب لا إنسانية؟ كلها أسئلة سنحاول الإجابة عنها في هذا البحث الذي نسعى من خلاله إلى نفض الغبار على مجموعة من النقط التي استغلها الزعيم الريفي ووظفها في تنظيم مقاومة عنيدة أرهقت دهاقنة الاستعمار الأوربي. كما سنحاول البحث عن أسباب فشل المقاومة الريفية التي وضعت رهانها على تضارب مصالح الدول الاستعمارية التي سارعت إلى التحالف والتعاضد ونبذ خلافاتها لإنهاء ما عرف بحرب الريف، هذه الحرب التي جعلت أنظار العالم الغربي والعالم المغلوب على أمره تتجه نحو ما كان يدور في منطقة الشمال المغربي. المواجهة اغتنمتها الدول الاستعمارية المهتمة بالريف فرصة لتصفي حساباتها ولتحل كثيرا من مشاكلها، كما كانت حرب الريف مناسبة لأبناء المستعمرات ليراجعوا أنفسهم ويحاسبوا ضمائرهم. لقد جعل الكل من حرب الريف حربه الخاصة. فكيف كان ذلك؟

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٧ يوليو ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٩ أكتوبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

المجتمع الريفي، معركة دهار أوبران، معركة أنوال، الاستعمار الإسباني، الحماية الفرنسية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العزيز بودرة. "محمد بن عبد الكريم الخطابي في مواجهة التدخل الإمبريالي".- دورية كان التاريخية.- العدد السابع والعشرون؛ مارس ٢٠١٥. ص ٣٤ – ٤٣.

مُقَدِّمَة

شهد المغرب منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين، وعلى مر أكثر من قرن، حروبًا مستمرة في مواجهة الأطماع الأوربية، جعلته يتميز بكونه بلد المقاومات، بدءًا بمعركة وادي إيسلي وحرب تطوان، مرورًا بمقاومة التدخل الفرنسي خلال عمليات توغله الأولى من ١٩٠٠ إلى ١٩١٢، وتتويجًا بالمقاومة المسلحة بمختلف المناطق المغربية، وانتهاء بحرب جيش التحرير. والمتتبع لهذه المراحل والأشواط التي قطعتها المقاومة المغربية سواءً من خلال اختلافها أو تفرعها أو شكلها وانتظامها وأساليبها الحربية، ليقف مذهولاً أمام قوتها ومناعتها، مناعة جبال الأطلس، وقوة ورباطة جأش أبطالها. سنتوقف في مساهمتنا هذه، عند أسطع وجه لمع في سماء المقاومة المغربية، وشكل أحد رموزها الأخيار، وعبر عن إرادة الشعب المغربي التواقة إلى الحرية والاستقلال والانعتاق، وسجل إحدى صفحاته المشرقة في تاريخ المغرب الحديث.

تؤكد التجربة الإنسانية على الأرض، أن الرجال العظام في التاريخ، أولئك الذين استطاعوا أن يدركوا وجهته وقوانينه والتعامل معه بالطريقة التي تجعلهم يذكرون فيه كما يذكر الحسين بن علي على منابر الشيعة، لا كما كان يذكر والده على منابر بني أمية. وكانت تلك حالة عبد الكريم الخطابي إلى حد كبير،

وبما أن الإنسان ابن بيئته وجب علينا دراسة المحيط الذي عاش فيه الخطابي خلال بداياته الأولى ومحاولته استكشاف محيطه القريب "الريف" والمتوسط "المغرب" ممثلاً في عاصمة الدولة آنذاك فاس والبعيد ممثلاً في مدينة مليلية بوابة المغرب على أوربا، وتأثير ذلك على شخصيته وإعداده لأن يكون واحدًا من كبار صناع تاريخ المغرب المعاصر.

أولاً: محمد بن عبد الكريم الخطابي (السيرة والمسيرة)

ولد في أجدير سنة ١٨٨٢م، تلقى تعليمه الأولي على يد أبيه عبد الكريم . الذي كان قاضيًا شريفًا يحاط باحترام عميق لعلمه ولاستقامته على حد سواء، وكان زعيما لقبيلته . في سن الخامسة التحق بالكتاب فحفظ القرآن في سن مبكرة، أعجب كثيرًا بمهنة أبيه التي كانت مهنة لجده وأبي جده، وهو ما جعل أباه يرسله إلى جامعة القرويين سنة ١٩٠٥ لطلب العلم، وسمح له بالاحتكاك بمجموعة من الطلبة وتلقى الدروس في مختلف الاتجاهات وفي تطوير مواهبه، وسيتخرج منها سنة ١٩٠٩م، ليعود من جديد إلى الريف.[١] شارك في التحالف الريفي الذي تشكل بفضل والده من أجل مقاومة الجيلالي الزرهوني المدعو بـ "بوحمارة"، وبعد ذلك سيرسله أبوه إلى "مليلية" كي يدرس القانون، ويكتسب الخبرة من الاسبانيين، ويكشف على نواياهم الاستعمارية في المغرب، اشتغل بالتدريس في إحدى المدارس الصغيرة لأبناء المسلمين المقيمين في المدينة، ثم ترك هذه المهنة كي يمتهن الصحافة بإصداره للصفحة المحررة باللغة العربية في "تلغراف الريف"، ومن أجل العمل كسكرتير في مكتب الشؤون المحلية.

أصبح سنة ١٩١٣م مستشارًا لدى محكمة الجنايات، ثم ترقى لمنصب رئيس العدل، قاضيًا في القضايا الجنائية والمدنية معًا، هذه المناصب التي تدل على كفاءته، سمحت له بالاحتكاك مع المسئولين الأسبان والاطلاع على الوثائق التي تكشف النقاب عن العجز والفساد الإسبانيين، وكذا الخطط التي وضعت من أجل استغلال ونهب خيرات الريف، ويتأكد بشكل قاطع أنه ليس في نية الاسبانيين على الإطلاق السماح لأهل الريف بالانتفاع من ثرواتهم الطبيعية أو معاملتهم كشركاء متساوين كما كانوا يعلنون على الملأ، ليرى بذلك الوجه الحقيقي للاستعمار. فلم يتوانى عن استغلال المنبر الاستعماري "تلغراف الريف" لدحض بعض الأفكار المسمومة التي كانت تبثها "جريدة السعادة" لسان الحماية الفرنسية وكذا الاحتجاج عن التقسيم الفرنسي الاسباني للمغرب حيث يروى أن الجنرال سلفيستري الذي كان يقوم بزيارة مليلية التقى بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي ودخلا في نقاش انتهى بشجار غير لائق.

كما أن رفض عبد الكريم الأب لعرض إسبانيا المتمثل في تولي منصب نائب السلطان في تطوان، ورفض أطماع الإسبان في فرض السيطرة على بلاد الريف، وكذا إعلان معارضته للاستعمار، ورفض تقديم الولاء للجنرال الإسباني "خوردانا" جعل السلطات الإسبانية تقوم بعزل الأمير من مناصبه، والزج به في السجن قرابة عام، حاول الهروب من السجن إلا أن محاولته باءت بالفشل بعد أن أصيب بكسر في رجله كان سببًا في عرج خفيف لازمه طوال حياته. بعد إطلاق سراحه عاد إلى أجدير ليلتحق بوالده الذي توفي سنة ١٩٢٠، عندما كان يقود إحدى المعارك ضد الإسبان في منطقة تفرسيت، بعد أن تم تسميمه من طرف أحد عملاء إسبانيا وبذلك انتقلت الزعامة إلى ابنه الذي قطع له الوعد بمواصلة الطريق وهو الوعد الذي ترجمه ميدانيًا بقيادته لحرب تحررية في الريف ما بين ١٩٢١م و ١٩٢٦م، والتي انتهت بنفيه إلى جزيرة لاريونيون Réunion La ثم بعد ذلك سينزل في مصر سنة ١٩٤٧م، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من حياة المنفى والنضال حيث سيواصل صراعه ضد الاستعمار وعملائه إلى أن توفي سنة ١٩٦٣م.

وبخصوص أوصاف الزعيم الريفي يمكن أن ندرج ما قاله كابريلي Gabrielli عنه بمناسبة زيارته للريف في يونيو ١٩٢٥، حيث كتب: "إنه رجل مربوع القامة، يميل إلى البدانة، ذو سحنة داكنة تحيط بها لحية مشذبة. وله عينان مفعمتان بالحيوية مع ميلهما للحول".[٢] لم نقصد بهذه الأسطر الإحاطة بحياة محمد بن عبد الكريم الخطابي فحياته أعظم من أن تتناولها صفحة أو صفحات، خاصةً وأنه لا يمكن أن نميز بين الأحداث وبين السيرة الذاتية لهذا القائد، لكننا نؤكد أن قصة حياته، وفصول نضاله تستحق بجدارة أن تنشر على الناس أمانة للتاريخ وعرفانا لجميل هذا القائد، الذي كان بطلا لحرب تحريرية شغلت الناس طوال سنوات عديدة، واهتزت لها الصحافة العالمية، وكل وسائل الإعلام والمخابرات والمحافل الدبلوماسية ومجالس البرلمان والأحزاب السياسية في أوروبا، غير أنه لم يعرف لدى الناس إلا باسم أبيه، إذ يدعى من طرف الكل باسم عبد الكريم في حين أن اسمه هو محمد بن عبد الكريم الخطابي.

ثانيًا: طبيعة حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي

يكفي التدقيق في طبيعة حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي من حيث التنظيم والتكتيك والاستراتيجية لفهم الأسباب التي أدت إلى التحالف الإمبريالي من أجل القضاء على هذه الحركة. فقد استطاعت هذه الحركة التصدي للأطماع الاستعمارية الإسبانية ما بين (١٩٢١ – ١٩٢٥)، ثم الفرنسية ابتداءً من أبريل ١٩٢٥م، والقوتين معًا ابتداءً من شتنبر/ سبتمبر ١٩٢٥م، مستفيدة من تنظيمها المحكم وتكتيكها واستراتيجياتها الواضحين، على غرار حنكة قائدها الذي استطاع في مختلف مراحل الكفاح، التوفيق بين المواجهة العسكرية والتحرك السياسي والدبلوماسي.

كانت الاستراتيجية التي وضعها محمد بن عبد الكريم الخطابي لحرب الريف واضحة الأفق، تمثلت في "تحرير المغرب من أجدير إلى أكادير".[٣] فكان يلح على أن يعمل قادته على جعل جنودهم مستوعبين الوضع على حقيقته، وذلك عبر فهم هذه الاستراتيجية العامة لمعركتهم ليعطي لقضية التحرر من الاستعمار طابعها الوطني. فلم يكن هدفه يقتصر على تحرير تلك البقعة المسماة

بالريف السياسي والممتدة من طنجة حتى مشارف وجدة، إن هذه الرؤية الشمولية اتضحت فيما بعد عنده بل وانفتحت نية التحرير على شمال إفريقيا برمته وهو الفضاء الذي كان يعتبره بنعبد الكريم رحبًا للعمل السياسي بعيدًا عن أية نظرة ضيقة، فاعتبر الصراع ضد المستعمر مصيري لا يقبل المساومة ولا يمكن فصله عن حق الشعوب في تقرير مصيرها واختيار النظام السياسي الملائم لها، هذا ما جاء في رسالة وجهها بن عبد الكريم إلى جمعية الطلبة في "بونيس إيرس" جاء فيها "لا يوجد في هذه الدنيا حق للأمم أقدس وأرسخ من حقها في تقرير مصيرها وأن تحكم نفسها بنفسها".[٤]

كما لم يميز الأمير بين الإسبان والفرنسيين، فقد كان يناهض الإمبريالية بشكل عام، وهذا ما جاء في خطابه للوطنيين الصينيين، حينما قال "أنتم في الشرق الأقصى ونحن في المغرب الأقصى نكافح معًا ضد امبريالية تستعبد شعوبنا"، [٥] هذه هي حقيقة حركة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، البعيدة كل البعد عن ما يتم الترويج له بلا وطنيتها بالمعنى الحديث، لأنها بدأت وانتهت كحركة قبلية، وأنها مثال ساطع على التمرد الأزلي، وعدم الخضوع للسلطة المركزية، مع العلم أن القائد الريفي صرح أكثر من مرة، بعدم رغبته لا في الحكم ولا في المال، كل ما يريده الحرية والانعتاق من ربق الاستعمار، فكلمته العظيمة التي قالها قبل تحقيق النصر في معركة أنوال الخالدة، تبقى شاهدة على ذلك حين قال: "أنا لا أريد أن أكون أميرًا ولا حاكمًا وإنما أريد أن أكون حرًا في بلد حر ولا أضيق من سلب حريتي أو كرامتي"،[٦] أما بعد الانتصار في معركة أنوال المجيدة، فقد قال في اجتماع مع رجال الريف، توافدوا عليه بأعداد غفيرة يريدون إعلانه سلطانًا: "لا أريدها سلطنة ولا إمارة ولا جمهورية ولا محمية إنما أريدها عدالة اجتماعية ونظامًا عادلاً يستمد روحه من تراثه"، فلم يكن كذلك مرابطًا محليًا يقود الجهاد ضد الكفار ويعد بالجنة بل كان قائدًا سياسيًا وسع طموحاته إلى فكرة الوطنية.

أما فيما يخص التكتيك الذي استعمله بن عبد الكريم خلال حرب الريف، والذي جعلها تأخذ مكانها البارز في التاريخ العالمي، فالتصريح الذي أدلى به "ماو تسي تونغ"[٧] لوفد فتح من منظمة التحرير الفلسطيني سنة ١٩٧١، يعطينا صورة جلية عن هذا التكتيك حين قال: "رفاقي الأعزاء أتيتم تزورونني لكي أحدثكم عن حرب التحرير الشعبية في حين يوجد في تاريخكم القريب ابن عبد الكريم الخطابي الذي هو أحد المصادر الرئيسية الذي تعلمت منها حرب التحرير الشعبية"،[٨] فالمغاربة اكتشفوا بمنطقة الريف الخطة الحربية أو التكتيك الذي يضمن وحدة إمكانية الضغط على الاستعمار، ألا وهي حرب العصابات أو الحرب الشعبية، وهو التكتيك الذي رأى فيه الأمير الطريق الوحيد لقهر الجيش الاستعماري المنظم ذو السلاح المتطور، لتصبح بذلك "حرب الريف" مدرسة للثوار عبر العالم، خاصةً وأنها هزت الأركان العسكرية للاستعمار الإسباني والفرنسي معًا، حيث مكنت شعبًا صغيرًا لم يكن يتجاوز ربع مليون نسمة برجاله ونسائه وشيوخه وأطفاله، من تحقيق انتصارات عظيمة على المستعمر، ورفع هامة الريف والمغرب عاليًا، وأصبحت كذلك مثالاً يقتدى بين جميع الأمم التي ابتلت بالاستعمار، فـ "هو شي منه" (Hochi Minh).[٩] الذي واكب حرب الريف لما كان طالبًا في فرنسا، كان يقول عنها: "إن الدروس المستقاه من حرب الريف قد أظهرت بصفة جلية أن باستطاعة شعب صغير هزيمة جيش عصري ومنظم عندما يحمل السلاح ويدافع عن حقوقه فالريفيون استحقوا بجدارة أن يقال أنهم أعطوا الدروس للعالم أجمع"، وكان على حق في رأيه، لأنه أخذ بالخطة نفسها في حرب التحرير التي قادها بالهند الصينية، وما كان في الإمكان أن نجد شاهدًا خيرًا منه على أهميتها.

لهذا شكلت حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي، نموذجًا متميزًا في الحركات التحررية لدى مجموعة من الشعوب المستعمرة لدرجة أصبحت معها كبريات المعاهد والأكاديميات العسكرية في أمريكا وفرنسا وإسبانيا تدرس تكتيكاتها واستراتيجيها.

بهذا الأسلوب الجديد في المقاومة استطاع الريفيون وقائدهم تحقيق انتصارات باهرة على الجيوش الاسبانية شكلت آنذاك دفعة قوية للمقاومة إن على المستوى المادي، والمتمثل في الغنائم التي حصل عليها الأمير من مدافع ورشاشات وبنادق والخرطوش... ناهيك عن الخسائر البشرية في صفوف العدو، فمثلاً بعد الانتصار في معركة "أدهار أبران" و"أنوال"، أصبح في يد الريفيين أزيد من (١٩٥٠٤) بندقية، (٣٥٢) رشاش، (١٢٩) مدفعًا، وقتلوا أزيد من (١٨٠٠) رجل أي جيش برمته وأسروا حوالي (١١٠٠) أسير،[١٠] كما أن "الجنرال سيلفيستر" لم يتمكن من شرب الشاي في دار محمد بن عبد الكريم، كما كان يصرح، لأنه قد لقي مصرعه في معركة "أنوال"، أو على المستوى المعنوي وذلك ما يبرر التحاق مجموعة من القبائل بالحركة التحريرية، التي اقتصرت في البداية على ثلاث قبائل فقط وهي: "بني وريغل" و"بني توزين" و"بيقوة"، حتى تلك القبائل التي خضعت وقبلت دخول المستعمر انقلبت ضد هذا الأخير، علمًا أن محمد بن عبد الكريم الخطابي قبل تحقيق هذا النجاح، قام بمحاولات عديدة للاستنهاض القبائل ضد إسبانيا، غير أنه أخفق في الحصول على تأييدها، لأنها كانت تظن أنه من المستحيل الانتصار على الأسبان. لتتوالى بذلك هذه الانتصارات حيث أن اثني عشر سنة من العمل الإسباني في المغرب ذهبت خلال أيام قليلة، حيث وصل جيش ابن عبد الكريم حتى مشارف مليلية. فقد شكلت هذه الانتصارات كارثة بالنسبة للإسبانيين أثرت على تاريخ إسبانيا المعاصر تأثيرًا بليغًا، إلى جانب الصدى الذي خلفته هذه الحرب على الصعيد الدولي والمحلي.

كما وجهت هذه الانتصارات ضربة قاسمة لمنظري الاستعمار الذين أكدوا على أن المجتمع الريفي عبارة عن مجتمع فسيفسائي تنخره الصراعات الداخلية والحروب الانتقامية كما أثبتت زيف حسابات "الجنرال سلفستير" الذي كان يرى في الأمير مجرد رجل

مغرور يمكن أن يعيق قوة إسبانيا، لكنه لا يستطيع سبيلاً إلى مقاومتها، وكان يسمي أهل الريف "جنود التنورة"، ضنا منه أنه سيقسمهم قبل أن يتمكنوا من تعبئة أنفسهم. ويرى في استعمال القوة طريقة لإفهام المغاربة أنهم شعب مغلوب وأن علاقتهم مع الإسبان يجب أن تكتسي صبغة علاقات بين غالب ومغلوب. هكذا؛ ستتوج الانتصارات المتتالية بإعلان ابن عبد الكريم، قيام جمهورية الريف في يوليوز ١٩٢٣، أي "إقامة دولة ذات بنية حديثة تتخلص في نفس الوقت من تعسفات المخزن ومن سلبية نظام السيبة".[11]

وقد تم تأسيس سلطة هذه الدولة انطلاقًا من تحليل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للريف، والبحث عن تنظيم كفيل بتلبية الحاجيات الفعلية للشعب والتعبير عن إرادته في التحرر الوطني، وهو ما فسح له المجال لتسييد القانون بدل العرف القبلي، واستعماله كسلاح مضاد لسلاح الدول الاستعمارية التي تفننت في تمزيق المجتمعات ونشر الفوضى وتشجيع النعرات والعادات السلبية التي تمزق الأرواح بين القبائل، وداخلها ليقضي نهائيًا على بعض العوائد السلبية، مثل عادة الثأر، منع اختطاف النساء، معاقبة كل من يقوم بازدراء اليهود المغاربة أو تحقيرهم.. وعمل على نشر الأمن وفرض نظام ضريبي جديد.[١٢]

غير أن تأسيس هذه الجمهورية ليس لكي تبقى جمهورية الريف، الغاية منها الاقتصار على الريف. ودائمًا في إطار تصفية النظم القبلية ابتكر محمد بن عبد الكريم الخطابي الوسيلة الصحيحة لخوض حرب التحرير، والمتمثلة في الجيش الشعبي، مخالفًا التقليد المتبع في نظام المخزن، حيث اعتمد على تعبئة ذكور كل قبيلة الذي تتراوح أعمارهم بين (١٦) و(٥٠) سنة، وقسمهم إلى نصفين نصف يحارب لمدة أسبوعين كمعدل وسطي، والنصف الآخر ينتج الحياة المادية.[13] لم يكن يعمل هذا الجيش في كتائب منفصلة باستثناء عمامات مختلفة الألوان:

- المشاة يعتمون بعمامة حمراء.
- رجال المدفعية يعتمون بعمامة سوداء.
- حرس الأمير الخاص يعتمون بعمامة مخضرة.

كل جندي يرتدي جلابيته المألوفة المحاكة في بيته ويحمل طعامه الخاص ودخيرته. إلى جانب الاعتماد بشكل أساس على القبائل، أسس القائد الريفي جيش نظامي يتقاضى جنوده رواتب شهرية من خزينة الدولة. هكذا تزود الريفيون خلال المراحل الأولى من الحرب بكل ما يلزم لتنظيم المقاومة على أسس متينة من أسلحة ودخيرة حيث أصبح في يدهم حتى سلاح الطيران والذين حصلوا عليه أما عن طريق شرائه أو الاستيلاء عليه في إحدى المطارات.

لكن لم يتسنى لهم استعماله وفي هذا الصدد يذكر شاهد عيان إسباني للحرب ما يلي: "يبدو أن عبد الكريم يتوفر على (٥) أو (٤) طائرات عسكرية توجد في مكان ما داخل قبيلة بني ورياغل غير أنه لم يستطع استعماله لعدم توفره على الوقود الضروري، ولم يكن يتصور أن يكون عبد الكريم قد حصل على هذا النوع الخطير من السلاح وعلى كل حال فمن الألطاف الإلهية أنه لم يتمكن من الحصول على الوقود وإلا لكان في وسعه أن يمحو جزيرتنا من الخريطة".[١٤] كما أصبح في يد الريفيين شبكة هاتفية جعلت القيادة الريفية في اتصال مباشر مع الوحدات المتحركة المختلفة سمح لها بتنفيذ عمليات مشتركة في ميدان واسع، دون أن ننسى إجبار المقاومة المستعمر الإسباني على التفاوض مع محمد بن عبد الكريم الخطابي بشأن الأسرى الذين افتدتهم بملايين البسيطات.

وقد ذاع صيت هذه الانتصارات متجاوزًا حدود الريف التي كانت مسرحًا لها، وبذلك ستنضم قبائل غمارة واجبالة بعد اضطرار الأسبان الانسحاب إلى المراكز الساحلية سنة ١٩٢٤م، كما كان لهذه الانجازات وقع كذلك على التراث الشعبي حيث نجد النساء والعجائز إلى حد قريب كن يرددن الأناشيد والأغاني المشيدة بحرب الريف خاصة عند قيامهن بالأعمال الجماعية مثل الاحتطاب أو الطحن اليدوي أو في طريقهن إلى أو من العين،[١٥] كما نجد كذلك في قبائل الريف فنانين "امذيازن" ينظمون قصائد شعرية للمقاومة ويغنونها في قالب موسيقي.

ثالثا: محمد بن عبد الكريم الخطابي في مواجهة اسبانيا

قبل أن تنطلق الحرب الريفية الإسبانية قام محمد بن عبد الكريم الخطابي بعمل تعبوي كبير داخل القبائل الريفية عقب وفاة والده في شهر غشت ١٩٢٠ وهو يحارب الإسبان في منطقة "تفريست" الواقعة وسط المسافة بين الحسيمة والناظور، وبعدما تأكد الأمير بالملموس أن إسبانيا لن ترضى بأي حل تفاوضي سلمي وأن غايتها هي إذلال الريف وأهله اعتمادًا على قوة الحديد والنار، أسس أول قيادة جماعية بتاريخ (٢٠ سبتمبر ١٩٢٠) مكونة من (٣٨) شخصية أغلبهم من أعيان قبيلة آيت ورياغل وتعاهدوا على:

- الدفاع عن الدين والوطن والشرف إلى الموت.
- عدم إثارة الضغائن وعدم اللجوء إلى الثأر مهما تكن الظروف والملابسات.
- الالتزام بتنفيذ الأحكام الشرعية في كل الأحوال.[١٦]

بعد الاطمئنان إلى المؤاخاة التي بدأت تسود صفوف آيت ورياغل، امتد عمل الأحلاف والمؤاخاة إلى القبيلتين المجاورتين شرقا لآيت ورياغل وهما آيت توزين وتمسمان، حيث تم تأسيس مركز المجاهدين المتقدم في هذه الأخيرة بموقع "جب القامة" وكانت القوات الإسبانية قد احتلت مراكز استراتيجية في هاتين القبيلتين المطلتين على آيت ورياغل استعدادا لاحتلالها، وبذلك سيتم بسط نفوذ إسبانيا على كل المنطقة الخليفية.[١٧] وفي شهر يونيو من سنة ١٩٢١ انطلقت المعارك بهجوم المجاهدين على مركز "ادهار أوبران" وكان ذلك الهجوم بداية المعارك التي استمرت مدة شهر ونصف على مثلث "ادهار أوبران . إغريبن . أنوال" والتي كانت لها انعكاساتها

الكبيرة على المستقبل السياسي لإسبانيا، واستمرت عقودًا طويلة وأعطت في المقابل شهرة عالمية للريفيين وللمغرب المعاصر تفوق الشهرة التي حصل عليها المغرب بعد معركة وادي المخازن منذ ١٥٧٨ المعروفة بمعركة الملوك الثلاثة.[١٨]

١/٣- معركة "ادهار أوبران" (٠١ يونيو ١٩٢١):

تعتبر معركة "دهار أوبران" (جبل أوبران) أول معركة يحقق فيها الريفيون بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي انتصارًا ضد القوات الإسبانية، حيث دفعت الانتصارات المتتالية لإسبانيا الجنرال "سلفستري" إلى التفكير في غزو مدينة الحسيمة، ولأجل ذلك قرر الاستيلاء على "ادهار أوبران"، وبما أن هذا الجبل يوجد في موقع استراتيجي حيث يفصل تمسمان عن البحر الأبيض المتوسط، فقد استشعر محمد بن عبد الكريم الخطابي خطورة الموقف وفكر في ضرورة القيام بهجوم حاسم على القوات الإسبانية بهدف استرجاع "ادهار أوبران" الذي أصبح ذا أهمية كبيرة في تحديد مستقبل حرب الريفيين ضد الإسبان.[١٩]

زحفت القوات الإسبانية باتجاه "ادهار أوبران" بقيادة الكولونيل فيلار (Villar)، أما سلفستري ففضل الإتجاه نحو أنوال في ذلك اليوم، فقد تحدث إلى "موراليس" (Morales) وقال له: "إنه يريد أن يكافئ فيلار (Villar)". وقد علقت المؤرخة الإسبانية ماريا روسا عن ذلك بقولها : "كان في طي الكلام تأنيب وانتقاد له، لأنه كان يعارض هذه العملية ويعتبرها مجازفة".[٢٠] لكن يبدو أن سلفستري كان متيقنًا من احتلال هذا الموقع دون أي مقاومة تذكر فقد قال لضباطه بعد ساعات من وصول قوات "فيلار" إلى "أوبران": "إنني كنت على حق عندما خططت للاستيلاء على هذا المركز وقد كنتم جميعا تعارضونني، فها هو "أوبران" قد تم احتلاله ولم يسمع أحد منكم ولو طلقة نارية واحدة وها هو الجيش الإسباني العتيد يتمركز بذلك المكان ويقوم بتحصينه".[٢١]

أما الحركة الريفية فقد انتظرت إلى أن انتهى الأسبان من أعمال التحصين وتأكدوا من نجاح مهتهم فانقضت عليهم وهم في طريقهم إلى أنوال التي وصلها الكولونيل "فيلار" بصعوبة بعدما فقد الكثير من جنوده.[٢٢] وبعد ذلك توجت الحركة الريفية إلى "ادهار أوبران" واجتمعوا من كل جهة وأحاطوا من كل جهة بالقشلة، وأخذوا يطلقون النار على الجيش الإسباني الذي كان داخل القشلة المحصنة بسور من خناشي الرمل والأسلاك الشائكة التي اقتلعوها عن آخرها، وتقدموا إلى الأمام، فاقتحموا وقتلوا جميع الجيوش التي كانت داخل القشلة بالحجر الذي كان يتساقط عليهم كالمطر، إلا عددًا قليلاً استطاع الهروب فالتحق إما بسيدي ادريس أو بأنوال.[23] فقدت إسبانيا في هذه المعركة ما يناهز (٣٠٠) رجل، وتمكن المقاومون من الحصول على عدد وافر من الأسلحة التي كانوا في أشد الحاجة إليها، ويؤكد التقرير الذي أعده الجنرال سلفستري في يوم ٨ يونيو ١٩٢١ أن المقاومين غنموا أربعة مدافع وثلاثمائة بندقية وأربعة صناديق فيها ستون ألف من القرطاس، وثلاثمائة وستون من قنابل المدافع، زيادة على عدد من الخيم والأدوية والمأكولات وإثنا عشر ألف ريال إسباني.[٢٤]

ارتفعت معنويات الريفيين بعد واقعة "أوبران"، فهاجم المقاومون في اليوم الموالي في ٢ يونيو موقع سيدي ادريس، وانطلقت فرقة للتدخل السريع، من أنوال فاضطرت لانسحاب أمام ارتفاع عدد كبير من ضحاياها.[٢٥] كان لمعركة "ادهار أوبران" أهمية كبيرة وقد علق عن ذلك جرمان عياش بقوله: "هكذا كانت أوبران، بخلاف رأي برينغير، هي التي أعطت في كل الريف نفسًا جديدًا للقوة الشعبية الهائلة بعد أن كان قد اعتراها الفتور تدريجيًا من جراء الانقسام، والفوضى، والفشل، والخوف في آخر الأمر. وحيث إن "أوبران" هي التي قطعت خط الرجعة على محمد بن عبد الكريم، الذي كانت القبائل في حاجة إليه من توحيد صفوفها وبلوغ غايتها المنشودة، فقد اندلعت منها ومن يوم وقوعها بالذات هذه الحرب التي تعتبر أول حرب في التاريخ ضد هيمنة أوربا المنتصرة، تلك الحرب الشعبية، الهجومية، التي كادت تكون مظفرة: إنها حرب الريف التي بدأت من تلك المعركة ومن يوم وقوعها".[٢٦] بعد معركة "ادهار أوبران" سيتمكن الريفيين من تحقيق انتصارين آخرين في سيدي إبراهيم وإغربين، إلا أن المعركة التي ستهز كيان الإسبان وتعرقل مسيرتهم في المنطقة ويصل صداها إلى مختلف أنحاء العالم كانت معركة أنوال.

٢/٣- معركة أنوال : (٢١ يوليوز ١٩٢١)

بعد سلسلة من الإجراءات والتدابير العامة التي قام بها الجنرال سلفستري، شهدت مدينة مليلية استعراضًا كبيرًا ضم ما يزيد عن (٢٠٠٠٠) جندي يرأسه القائد العام للقوات الإسبانية العامة في الجهة الشرقية الجنرال **سلفستري**، فكان يومًا مشهودًا يدل على تصميم القائد واستعداده للقتال في سبيل إسبانيا والقضاء نهائيًا على الثورة الريفية التي أزعجت سلطات الاحتلال.[٢٧] قام محمد بن عبد الكريم الخطابي استعدادًا لهذه المعركة بمحاصرة الإسبان وقطع الإمدادات عنهم، وهكذا نجح رجال المقاومة في الاستيلاء على سيدي ابراهيم (أكمة الأشجار) وأصبحوا بذلك يسيطرون على الممر الذي يقطعه الأسبان لتموين موقع إغربين انطلاقًا من أنوال.[٢٨]

وفي ١٧ من شهر يوليوز، هاجم المقاومين مواقع بويميان وأنوال وإغربين، لتصبح مهمة الإسبان أكثر تعقيدًا، حيث أصبحت المواقع الإسبانية تعرف شحًا في الماء والمؤن والعتاد، لأن إيصال المؤونة أصبح شبه مستحيل.[٢٩] ولما اقتربت المعركة أرسل الزعيم الخطابي من مركزه بأمزاوروا تعزيزات جديدة للمقاومين، تمثلت في خمسمائة مجاهد ليلتحقوا بإخوانهم بخط القتال بآيت عزا، حاملين معهم جميع ما يحتاجون إليه من المواد الحربية والغذائية، بعدما زودهم بمعلوماته وإرشاداته التي كانت كلها تشجيعًا على الصبر والثبات والصمود في وجه العدو مهما بلغت قوته.[٣٠]

بعد احتلال المجاهدين للمراكز الاستراتيجية أخذوا يوجهون مياه الجبال نحو المنطقة التي تحيط بالقيادة العامة الإسبانية في أنوال. فترتب عن ذلك وحل جعل الجنرال سلفستري يتخذ قرار محاربة المجاهدين باستعمال جميع جيوشه للخروج من المازق، وكان عدد هذه الجيوش تسعة عشر ألف رجل تتوفر على عتاد كثير وخمسين مدفعًا ثقيلاً.[٣١]

قام سلفستري بهجوم حاسم كان يطمح من خلاله إلى حسم المعركة، حيث استعمل كل القوات التي وردت عليه من إسبانيا وتطوان، وضمت هذه القوات (٤٠٠٠٠) ألف جندي إسباني بالإضافة إلى (٢٠٠٠٠) مقاتل من شرطة الأهالي، فدارت معركة شديدة استمرت نحو ثلاث ساعات ولم يستطيع خلالها الجيش الإسباني اختراق صفوف المجاهدين، رغم استعماله جميع الأسلحة الخفيفة والثقيلة، وبعض الطائرات التي ظهرت لأول مرة في الميدان الحربي بالريف.[٣٢] لما أحس الجنرال سلفستري بخطورة الوضع عقد اجتماعًا مع الرؤساء العسكريين، وتم طرح ثلاثة احتمالات:

- الحوار مع الريفيين من أجل التفاوض حول استلام الموقع.
- مواصلة المقاومة.
- إخلاء الموقع بطريقة مفاجئة ومدروسة.

يظهر أن سلفستري كان ينتظر وصول المزيد من الإمدادات، لكن القبطان "كراسكو" (Crrasco) المسؤول عن شرطة الأهالي، أخبر الكولونيل مانيلا (Manella) الذي أطلع بدوره سلفستري أن عددًا كثيرًا قوة كبيرة من الريفيين تتقدم نحو أنوال مكونة من ثلاثة أقسام للنظاميين، فغير رأيه وقرر الجلاء المباشر.[٣٣]

حينما أعطى التعليمات بإجلاء الموقع، تسابق الجنود الإسبان نحو الخارج يهرعون دون سؤال أو تعليق، يتدافعون ويتزاحمون. هرب بعضهم إلى وجهة مجهولة، تاركين السلاح والعتاد، لقد كبدتهم الحركة الريفية وهم في طريقهم خسائر كثيرة: شاحنات ومشاة يتزاحمون ولم يكونوا آبهين بالهائم التي تعدو مذعورة في كل اتجاه، وكل ما كان على ظهورها من حمولة يتساقط تباعًا، هكذا غادر الإسبان موقعهم كما حصل في دوائر أنوال الأخرى. كلفت هذه المعركة خسائر فادحة للإسبان، ويقدر المؤرخ الإنجليزي روبيرت فورنو الخسائر الإسبانية في هذه المعركة على الشكل التالي:

- ١٨٠٠٠ قتيل في مقدمتهم الجنرال سلفستري (Silvestre).
- ١١٠٠٠ أسير في مقدمتهم الجنرال نافارو (Navaro).
- غنم الريفيون (١٩٥٠٤) بندقية، و(٣٥٢) رشاشًا، و(١٢٩) مدفعًا إضافةً إلى المواد العسكرية الأخرى كالملابس والخيام والعربات.[٣٤]

ومكنت هذه المعركة محمد بن عبد الكريم الخطابي من تحقيق انتصار عسكري أرغم به الإسبان على الجلوس معه لطاولة المفاوضات قصد استخلاص أسرى أنوال، كما منحت المعركة للزعيم الريفي ثقة الناس واجتماع كلمتهم حوله. وعلى مدى خمس سنوات التي استغرقتها الحرب، كانت المعارك بين المجاهدين والغزاة المحتلين تكاد تكون يومية، وقد قاد ابن عبد الكريم (٣٠٠) موقعة بنفسه، وتُعَدّ معركة "الشاون" التي جرت أواخر سنة ١٩٢٤ وأوائل ١٩٢٥ من أكبر معارك تلك الحرب بعد معركة أنوال فقد دامت (١٢٠) يومًا وأدت إلى مقتل (٢٠٠٠٠) جندي إسباني وإلى خسائر كبرى في العتاد.[٣٥]

رابعًا: محمد بن عبد الكريم الخطابي في مواجهة فرنسا

لم تندلع الحرب الفرنسية الريفية إلا بعد مرور أربع سنوات تقريبًا عن معركة أنوال وهي فترة حافلة بالأحداث والتطورات التي راكمت بشكل موضوعي عناصر وإشارات هامة حول الأسباب المباشرة وغير المباشرة للتدخل العسكري ضد المقاومة. صحيح أن توغل القوات الفرنسية داخل تراب قبلية بني زروال التي كانت كل من فرنسا وإسبانيا تعتبرانها خاضعة لهما، شكل الشرارة الأولى التي أدت إلى انفجار الأزمة بشكل رسمي بين الطرفين، الريفي والفرنسي، لكن استحضار مجموعة من الأحداث تنم على وجود صراع خفي بين الطرفين سبق الاصطدام المباشر.[٣٦] فقبل تلاحق انتصارات المقاومة الريفية على الاستعمار الاسباني كان موقف السلطات الفرنسية يتأرجح في نفس الوقت ما بين: عدم إعطاء صورة للريفيين وللمغاربة بشكل عام، أن الفرنسيين يعادون المقاومة وذلك لكي لا يؤججوا مشاعر العداء فقد كان "ليوطيLyautey" يحاول عزل ما يحدث في الريف عن منطقة الحماية الفرنسية. الرغبة في إغضاب الاسبان عبر الاستهزاء منهم لعجزهم عن قمع المقاومة في الريف وذلك انتقامًا لحيادهم خلال الحرب العالمية الأولى وكذا السماح لبعض العملاء الألمان و"لعبد المالك بن محي الدين" القيام بمناوشات انطلاقًا من المنطقة الاسبانية في الشمال.

هذا الموقف الفرنسي من الحرب الريفية الاسبانية لم يكن يعني بأي حال من الأحوال أن الوجود الإسباني في شمال المغرب كان مرفوضًا لدى فرنسا رغم وجود فترات تنافر بين الطرفين، بل على العكس من ذلك كانت فرنسا ترى في التواجد الإسباني في هذه المنطقة ضمان لعدم تدخل انجلترا وألمانيا في منطقة حساسة بالنسبة للفرنسيين وهو ما تجسد في اتفاقية الجزيرة الخضراء سنة ١٩٠٦م، ولهذا ستتجاوز القوتين الاستعماريتين تناقضاتها الثانوية لتصبح المقاومة الريفية هي النقيض الرئيس للطرفين، وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى تقرير المقيم العام المارشال ليوطي إلى رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك "بريان" بتاريخ ٢ غشت ١٩٢١م حذر فيه من المصاعب التي ستواجهها فرنسا في حالة إذا ما تم تعميم الحركة التي ابتدأت في الريف واعتبر أن أكبر خطر يهدد المصالح الاستعمارية الفرنسية في المغرب، يكمن في انتشار الثورة الريفية في باقي التراب المغربي.[٣٧]

في البدء تدخلت الإمبريالية الفرنسية في الحرب الريفية الإسبانية ما بين ١٩٢١م و١٩٢٤، بشكل غير مباشر عبر العمل

السياسي للحد من تأثير المقاومة الريفية، عن طريق الحملات الدعائية المسمومة ضد المقاومة ورجالاتها قام بها في منطقة كزناية حليفها "القائد المدبوح"، وفي مرنيسة قام بها "اعمر ولد حميدو"، والتي رد عليها ابن عبد الكريم عسكريا، عبر إرسال قوات إلى هذه المناطق نجحت في إعادة السيطرة عليها بعد أن أجبرت الخائنين على الفرار إلى "المنطقة الفرنسية"، كما رد على هذه الدعاية المسمومة كذلك سياسيًا أو دبلوماسيًا، عبر إرسال رسالة احتجاج إلى المارشال ليوطي Lyautey يؤكد فيها قناعته الراسخة بأن كل ما يحاك ضد المقاومة كان من وحي السلطات الفرنسية.[٣٨]

وعلى إثر الانتصارات المتتالية للحركة التحررية بالريف، أعطى ليوطي أوامره إلى القيادة بفاس، لتعمل على إثارة الفتن والقلاقل في تلك الناحية بين القبائل الخاضعة لها وبين تلك المنضمة لحركة الأمير، ولتحقيق ذلك اعتمدت بشكل كبير على "محمد بن عبد الرحمان الدرقاوي" . الذي كانت فرنسا قد أنعمت عليه برتبة كمندار شرفي، والذي كانت كلمته مسموعة في أوساط قبيلة بني زروال والقبائل المجاورة . الذي عمل على تشويش القبائل التابعة لطريقته ليثوروا على الحكومة الريفية ويعرقلوا مسعى المجاهدين[٣٩]، فصار يبث الدعايات والفتاوي شفاهيًا أو بواسطة الرسائل يدعي فيها بأن محمد بن عبد الكريم الخطابي ثائر على العرش العلوي فمَنْ تبعه فهو مسخوط عليه من طرف السلطان وأنه يخدم مصالح دولة أجنبية.

إن الفشل الذريع الذي لحق بعملاء فرنسا منح القائد الريفي سمعة حسنة وشهرة لامعة لدى جل القبائل الجنوبية، جعلت الحكومة الفرنسية التي كانت لا تكترث لما يحدث في الريف، وكانت تقف موقف المتفرج إبان المعارك الريفية الاسبانية ما بين (١٩٢١ – ١٩٢٤)، تقلق أكثر من أي وقت عن مصالحها وأصبح مشكل الريف من الأولويات، وهذا ما جاء في تقرير "ليوطي" لوزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ ١٣ فبراير، ١٩٢٤ والذي ركز فيه على التأييد الشعبي الكبير الذي أصبح يحضى به محمد بن عبد الكريم الخطابي، ملحًا على ضرورة احتلال المرتفعات الإستراتيجية الواقعة على ضفاف نهر ورغة، لتشكل مراكز متحركة لمراقبة تحركات المقاومة، ولتكون سدًا منيعًا أمام أي هجوم مفاجئ من طرفها،[٤٠] فبادرت الحكومة الفرنسية بإرسال مبعوث رسمي إلى أجدير بتاريخ ٢٧ ماس ١٩٢٤، ليبلّغ ابن عبد الكريم عزم فرنسا على توسيع مجال نفوذها على النقط التي تدخل ضمن منطقتها، ورغم أن المسؤولين الريفيين عبروا عن استعدادهم لحل المشكل بشكل سلمي، وطلبوا من السلطات الفرنسية التوضيحات الكاملة حول حدود المنطقتين الفرنسية الإسبانية قبل الشروع في تنفيذ مشروع التقدم نحو المرتفعات، وعبروا كذلك عن الاستعداد للانسحاب من منطقة النفوذ الفرنسي شريطة إعطائهم الوقت الكافي لإقناع القبائل بذلك حتى لا يعود ذلك بالضرر على شعبية الأمير، إلا أن السلطات الفرنسية كانت مصرة على تطبيق مشروعيتها في أقرب الآجال.[٤١]

فتقدمت الجيوش الفرنسية في مايو ١٩٢٤ وعبرت نهر ورغة الفاصل بين مناطق نفوذ الإسبان والفرنسيين وأقامت مراكز عسكرية محصنة. وهكذا؛ سيتحول الغموض الذي كان يراه الكثير من المؤرخين في المواقف الفرنسية اتجاه الحرب الإسبانية الريفية إلى تواطأ كامل ومكشوف على المقاومة الريفية وبالطبع بعد أن أضفت على تدخلها في الريف الطابع الشرعي أي بناءً على معاهدة الحماية وباسم السلطان جاعلين من بطل الريف مجرد ثائر راغب في الملك أو ناقم يطالب بالعرش "وأنه لم يكن سوى آخر تجسيد لداء عضال متعشعش منذ القدم في أعماق البلاد وأجلى مظهر في العصر الحديث للتناحر الأزلي بين "بلاد المخزن" و"بلاد السيبة"،[٤٢] بخصوص هذا يقول جرمان عياش: "أنه كان يكفي التذكير بالتعارض التقليدي بين "بلاد المخزن" و"بلاد السيبة" ليتم فجأة طمس النضال الوطني الذي كان المغاربة يخوضونه ضد الغزاة ولتحول هذا النضال إلى مجرد صراعات داخلية جاء الأجنبي لتهدئتها".[٤٣]

إن فشل النشاط السياسي . الذي كان يشكل حجر الزاوية للسياسة الفرنسية في الجهة الشمالية ما بين ١٩٢١ و ١٩٢٤م . في ضمان المصالح الفرنسية الحيوية في المنطقة جعلها تدخل في صراع مباشر مع حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد تأخر دام أربع سنوات عن انطلاق الحرب الريفية الاسبانية، وهو تأخر كان مقصود فرنسا منه بواسطة مقيمها العام في الرباط المارشال ليوطي الذي كان يترقب الحركة التحريرية عسى أن تخمدها إسبانيا بمفردها وتعفي فرنسا من التكاليف التي لم تكن في حاجة إليها إلى أن رأى إسبانيا في حالة الاحتضار، وعلى أنها على وشك أن تشد رحيلها عن المغرب، هذا التدخل جعل كل المحاولات التي قام بها الأمير من أجل مجاملة فرنسا كي لا تتحالف مع إسبانيا ريثما تنسحب الجيوش الإسبانية من المغرب، تذهب سدى، وسيؤدي تطور الأحداث إلى تدهور الأوضاع أكثر لدرجة أصبح التواصل أو بالأحرى التفاهم بين الطرفين لاغيا لتنطلق مواجهات عسكرية حادة بينهما ابتداءً من شهر أبريل ١٩٢٥م.

لقد نجحت المقاومة في بداية الحرب الفرنسية الريفية في إلحاق هزائم نكراء بالاستعمار الفرنسي لتتوالى سقوط سلسلة الحصون التي أقامها الفرنسيون على طول الحدود الريفية، والتي كانوا يعتقدون استحالة اختراقها، وأن أي ريفي لا يجرؤ على التغلغل فيها، حيث تمكن محمد بن عبد الكريم من طرد الفرنسيين من أكثر من ٤٠ مركزًا في مدة ثلاث أشهر، ليصبح الذين سخروا عجز الأسبان على قمع المقاومة محط السخرية لأنهم قاسوا أهوال كوارث مماثلة من جراء الأسباب ذاتها، "فحرب الريف قد هزت أركان سمعة ليوطي العظيمة"[٤٤] الذي أكد على أن الوسائل المتوفرة والمتاحة غير كافية لمواجهة حرب الثوار التي كان يقوم بها

الريفيون. وأصبح يبدي تخوفًا صريحًا من إمكانية دخول قوات المقاومة إلى المدن المحايدة للجبهة (فاس، تازة، وزان) فمثلاً: حاكم منطقة تازة الجنرال كمباي Cambay تقدم لـ ليوطي بطلب رسمي بتاريخ ٤ يوليوز١٩٢٥ قصد السماح له بالانسحاب من تازة.[٤٥]

ففي لحظات الانتصار هذه كانت هبة فرنسا تتعرض للإذلال والإهانة، إذ كيف يعقل صمود قبائل معزولة أمام قوات دولة عظمى انتصرت في الحرب العالمية الأولى، وهو ما يفسر إقالة ليوطي . الذي كان إلى عهد قريب معبود الأوساط الاستعمارية التي كانت تكن له إجلالاً حقيقيًا. دون إقامة مراسيم مغادرته للمغرب، وتعويضه بـ: "تيودور ستيك Théodore Steeg" كمقيم عام جديد في المغرب[٤٦] كما تفسر كذلك هذه الانتصارات حالة الاستنفار القصوى للجيوش الفرنسية وحرب الإبادة التي خاضتها فرنسا في الريف، لدرجة أن محمد بن عبد الكريم الخطابي صرح قائلاً: "وهكذا جاؤوا يعلموننا الحضارة بالطائرات والقنابل لقتل أبرياء لا يملكون سوى وسائل الدفاع".[٤٧]

أما بالنسبة للمستعمر الإسباني، فسيتلقى نبأ اندلاع الحرب الفرنسية الريفية والهزائم المتتالية للجيوش الفرنسية بكثير من الارتياح، وهو موقف يجد تفسيره في مبدأ "المعاملة بالمثل" حيث أن الصحافة الإسبانية لم تتأخر في التذكير بالمواقف الفرنسية المتخاذلة إبان المرحلة الأولى من حرب الريف، مع التركيز على التسهيلات التي منحت لأفراد المقاومة في الدخول إلى المنطقة الخاضعة "للحماية" الفرنسية لشراء كل ما يحتاجونه من سلاح ومؤونة، وهنا إشارة إلى تصريح لـ"بريمو دي ريفيرا: لأحد الصحفيين عندما أطلعه على قبضة يده المملوءة بالخرطوش وقال: "إنها استخرجت من أجساد الإسبانيين القتلى، إنها من صنع فرنسي" وأضاف: "سجل كلماتي، فحين ينتهي عبد الكريم منا سيهاجم الفرنسيين مستخدمًا ذخيرتهم الخاصة ضدهم"،[٤٨] هذه الكلمات قالها بعد الانسحاب من شفشاون، الذي انتهى بهزيمة تضاهي هزيمة أنوال. غير أن هذا الموقف سيتبخر، حيث ستجد الحكومة الإسبانية في هذا الحدث فرصة للانتقام من الريفيين، وكذا باستحضار المصالح المشتركة للقوتين الاستعماريتين في المغرب. وقد شجعها في ذلك مبادرة الحكومة الفرنسية بإرسال مبعوث رسمي إلى مدريد في شخص الوزير السابق (Malvy) من أجل إقناع الحكومة الإسبانية بضرورة تحقيق تعاون وثيق بين الدولتين للقضاء على المقاومة.

خامسًا: محمد بن عبد الكريم الخطابي في مواجهة التحالف الإمبريالي

نظرًا لما تشكل المقاومة من خطورة على المصالح الفرنسية والإسبانية الحيوية المشتركة قامت القوتين الإمبرياليتين بإجراء اتصالات دبلوماسية فيما بينهما قصد خلق الظروف الملائمة للقضاء عليها، وكخطوة أولى اتفق الطرفان على إنشاء لجنة مشتركة لدراسة السبل الكفيلة لتنسيق تحركاتهم، وقد توجت جلسات عمل هذه اللجنة بالتوقيع على اتفاق هام في ٠٩ يوليو ١٩٢٥ يقضي بضرورة التعاون، لتطبيق الحصار البري والبحري على المنطقة الريفية، وبعد يومين سيليه اتفاق آخر أقر على "أن مخطط كل العمليات المشتركة يتم وضعه بالتنسيق بين القيادتين الفرنسية والإسبانية بالمغرب ويعرض على حكومتي البلدين".[٤٩] وستتم الترجمة الفعلية لهذه الاتفاقات في سبتمبر ١٩٢٥ عبر الإنزال الإسباني في خليج الحسيمة،[٥٠] والهجوم الفرنسي في شمال ورغة، في الوقت نفسه، غير أن العمليات المشتركة ستعرف بعض التعثرات جعلت المارشال بيتان (Pétain) ينادي بضرورة الاستمرار في المحادثات بشكل حثيث مع الحكومة الإسبانية، وتبعًا لذلك أصبحت اللقاءات الثنائية بينهما تتم بشكل دوري.

وإذا كان لا يمكننا في هذا البحث الرجوع إلى تفاصيل حرب الريف خلال هذه المرحلة الجديدة فإننا نريد التركيز على بعض الثوابت في شأنها، أهمها الفشل الواضح لكل من إسبانيا وفرنسا في القضاء على المقاومة، إن عن طريق الاحتواء أو العنف بشكل فردي، جعلها تتحالف من أجل ذلك، كما نسجل عدم التكافؤ على مستوى الإمكانيات:

الإمكانيات العسكرية الفرنسية:

- (٣) مرشالات وهم:

ليوطي (Lyautey)، بيتان (Pétain) وفرانشي ديسيبري.

- (٣٥٠) ألف جندي محترف من بينهم (١٢) ألف فرنسي.

- حوالي (٤٤٠) طائرة.

- (٦٠) جنرالاً.

- (٣١٥) دبابة.

- عدد كبير من السيارات المصفحة وسيارات الإسعاف.[٥١]

الإمكانيات العسكرية الإسبانية:

- إشراف بريمو دي ريفيرا بنفسه على العمليات العسكرية في الريف.

- (٦٠) ألف جندي إسباني وعدد كبير من الجنود المغاربة المنخرطين في صفوف الجيش الإسباني.

- استعمال المدفعية على نطاق واسع.

- طائرات كان أغلبها برمائي لأن المطارات كانت في غير مأمن من قنابل الريفيين.

- سيارات مصفحة مجهزة ببنادق آلية ومدافع ذات العيارات الصغيرة.[٥٢]

الإمكانيات العسكرية الريفية:

- جيش رسمي يتكون من المشاة بتراوح عددهم ما بين (٢٠٠٠) و(٣٠٠٠) معظمهم من قبائل بني ورياغل وبقيوة، وقد أنيطت بأكثريتهم مهمة قيادة وتدريب وتأطير وتنظيم مقاتلي القبائل الأخرى على شكل "محلات"، وقد اكتسب هؤلاء الخبرة العسكرية خلال احتكاكهم بالعدو، أو عن طريق ما تعلموه من فنون القتال أيام وجود بعضهم داخل الجيوش الإسبانية والفرنسية، وقد وضعت أسس هذا الجيش سنة ١٩٢٣ وهي السنة التي أحرز فيها ابن عبد الكريم فدية الأسرى الإسبان والتي مكنته من تجهيز الجيش وأداء

مرتبات الجنود.[٥٣] وتحت راية المشاة ينطوي (٧٠) ألف من الأنصار الوافدين من مختلف القبائل الريفية.

- الخيالة: شبه منعدمة وذلك لقلة الخيول في الريف بسبب طبيعة الأرض من جهة، وفقر الناس من جهة أخرى، باستثناء ابن عبد الكريم الذي كان يتوفر على كوكبة صغيرة خاصة لحراسته الشخصية يطلق على أفرادها اسم "الحفاظ".

- كان الريفيون يتوفرون على أكثر من (٢٠٠) قطعة من المدفعية من صنع فرنسي وإسباني وألماني، جلها مؤلفة من تلك التي استولوا عليها خلال المعارك الكبرى.

- امتلاك الأمير سلاح الطيران:

- استولى الريفيون على طائرات في مطار الناظور إثر المعارك التي تلت معركة أنوال.
- طائرتان نزلتا مرغمتين في مناطق الريف.
- اشترى بن عبد الكريم بواسطة القائد حدو والشريف التجاني (٣) طائرات من بعض الضباط الفرنسيين الذين فروا من الجزائر إلى الريف، ورغم أن محمد بن عبد الكريم لم يستعمل هذا السلاح في العمليات الحربية لانعدام أطر الملاحة والصيانة والوقود إلا أنه حرص على امتلاك هذا السلاح لرفع معنويات أنصاره وإضفاء شيء من البرستيج على حركته.[٥٤]

- حوالي (٦٠) ألف مفرقعة منها ما كان من صنع يهود الريف العارفين بصنعة الكي والتلحيم ترسل إلى مواقع العدو بواسطة المقالع.[٥٥]

- المصالح الطبية: انعدمت بمفهومها العصري في الريف، واقتصرت الإسعافات الصحية على الطب التقليدي (التداوي بالمستخرجات النباتية، استخراج الرصاص من الجرحى، جبر الكسور...) لقد كان النقص في هذا الميدان أكبر عائق للحركة التحررية في الريف.

إن هذا اللاتكافؤ الصارخ على مستوى الإمكانيات العسكرية للطرفين، أحسن محمد بن عبد الكريم الخطابي وصفه، حين قال: "حضارتكم مبنية على النار والحديد تتوفرون على قنابل وقذائف ضخمة لهذا تعتبرون أنفسكم متحضرين وليس عندي سوى خراطيش البندقية لهذا فإنكم تعتبرونني متوحشًا". وإلى جانب هذا اللاتكافؤ، اتخذ الهجوم الاستعماري شكلاً همجيًا اعتمد على أساليب الترهيب والضربات البشعة والقصف العشوائي والمكثف للمناطق السكنية والأسواق الأسبوعية، لاستهداف المدنيين العزل (أطفال، نساء، شيوخ...) لزرع الرعب والفزع في السكان، والتعجيل بتفكيك القبائل الملتفة حول الحركة التحررية في الريف. لقد شكل هذا الهجوم خرقًا واضح للمواثيق الدولية التي ساهمت هذه الدول نفسها في صياغتها والمصادقة على بنودها، خاصةً استعمال الأسلحة الكيماوية المحظورة والتي تم إلقاؤها عن طريق الطائرات.[٥٦]

في هذه الظروف، وتحت ضغط الرأي العام الفرنسي والإسباني انعقد مؤتمر وجدة (١٨ أبريل – ٥ مايو ١٩٢٦)، بحضور ممثلين عن فرنسا وإسبانيا، وممثلين عن المقاومة.[٥٧] وإذا استحضرنا الشروط المجحفة التي فرضت على الريفيين نفضي إلى خلاصة واضحة ألا وهي: أن المؤتمر لم يكن يراد منه من طرف الدولتين الاستعماريتين سوى تهدئة الرأي العام في البلدين، واستعمال هذه المسرحية لتحميل مسؤولية استمرار المعارك للريفيين، كل هذا يدخل في إطار استراتيجية محكمة للقضاء بصفة نهائية على حركة محمد عبد الكريم الخطابي، وقد استطاع التحالف الإمبريالي تحقيق هذه الاستراتيجية خاصةً بعد استسلام الأمير.

خاتمة

على إثر التحالف الإمبريالي على حركة محمد بن عبد الكريم وحرب الإبادة التي لم تستثني لا الشيخ ولا الطفل ولا النساء. اضطر الأمير الاستسلام، ليتم نفيه إلى جزيرة لاريونيون سنة ١٩٢٦، وقد دامت مدة نفيه هناك ٢١ سنة، لم تنل من مبادئه وقناعاته. ففي الوقت الذي كانت فيه القوى الاستعمارية تظن أن بنفيها لابن عبد الكريم قد قضت على شيء اسمه المقاومة، وأن هذا الرجل سيتم نسيانه إلى الأبد، نجد أن الأمير ما أن رجع من المنفى الأول، ونزوله بمصر سنة ١٩٤٧ حتى أعلن استعداده لمواصلة الكفاح ضد الاستعمار، وقد ترجم ذلك في مساهمته في تأسيس "لجنة تحرير المغرب العربي" وكذا تهيئ الشروط لتأسيس جيش التحرير في البلدان المغاربية.

لم يقتنع الأمير بالاستقلال الذي حصل عليه المغرب واعتبره استقلالاً شكليًا ورهن رجوعه إلى أرض الوطن بحصول المغرب على الاستقلال التام، هذا الشرط جعل منفاه يستمر حتى بعد وفاته في ٦ فبراير ١٩٦٣. فمازال محمد بن عبد الكريم منفيا في مماته، ولم نستطع أن نمنحه شبرًا من هذا الوطن الشاسع الذي يسع الجميع والذي لم يحتضن أحد صانعي تاريخه السياسي المعاصر.

لا شك أن هذا البحث قد جرني إلى التعبير عن آراء شخصية وأحكام لا تخلوا من الذاتية، ولا أدعي الموضوعية التي تعتبر صعبة المنال في ميدان العلوم الاجتماعية، كما أنه من المؤكد أنني أخطئت في تأويل بعض الأحداث والتواريخ وربما لم أنتبه إلى خصائص ومميزات ودور بعض المساهمين في الأحداث. كل ما أتمناه أن يكون هذا البحث قد أحاط ببعض جوانب هذا الموضوع وسلط الضوء على بعض الجوانب الغامضة من حياة محمد بن عبد الكريم وتقديم مساهمة بسيطة في هذا الشأن وإن كان هو أمر صعب لقلة المراجع والمصادر وتضاربها، كما أن الحقائق التي توصلت إليها تبقى نسبية ونطمح في تطويرها مستقبلاً.

الهَوامِشُ:

(١) فورنو، ريبرت، **عبد الكريم أمير الريف**، ترجمة د. فؤاد أيوب، دار دمشق، (د. ت.)، ص. ٢٦.

(2) Gabrielli, Léon, **Abde-el-krim et les événements du Rif**, 1924-1926, Editions Atlantide, Casablanca, 1953, p. 82.

(٣) عمر الخطابي في شريط سجله سنة 1996 تحت عنوان: **(عبد لكريم الأسطورة) Abd El Krim Legende of vrijheibsstrijder**

(٤) أمزيان، محمد، **محمد عبد الكريم الخطابي آراء وموافق (١٩٢٦-١٩٦٣)**، منشورات اختلاف، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ٤١.

(٥) مرتين، ميكل، **الاستعمار الاسباني في المغرب (١٨٦٠-١٩٥٦)**، ترجمة: عبد العزيز الوديي، منشورات التل، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٨، ص ٧٦.

(٦) تصريح لعائشة الخطابي **للصحيفة الجديدة**، العدد (٦)، ٢٠٠٤.

(٧) **ماو تسي تونغ**: ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الصيني سنة ١٩٢١ وتكلف بطلب من الحزب بتنظيم فرع إقليم "هيونان" كما وضع تقريرًا عن الفلاحين في "هيونان" أبرز فيه الطاقات الثورية للفلاحين وأبرز دورهم في بلد فلاحي مثل الصين وتمكن من تأسيس جمهورية اشتراكية في منطقة "سانشي" تتكون قاعدتها من الفلاحين.

(٨) أمزيان، محمد، **محمد عبد الكريم الخطابي آراء وموافق** ...، م. س.، ص ٧.

(٩) **هو تشي منه (Hochi Minh)**: مؤسس الحزب الشيوعي الفيتنامي وقائد الثورة الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي، بعد ١٩٥٤ أصبح رئيسًا لجمهورية فيتنام الديمقراطية الشمالية.

(١٠) فورنو، روبرت، **عبد الكريم أمير الريف**...، م. س.، ص ٦٧.

(١١)اليوسفي، عبد الرحمان، "**مؤسسات جمهورية الريف**"، مجلة أمل، العدد(٨)، السنة الثالثة، ١٩٩٦، ص٩١.

(١٢) أقضاض، محمد، **الاحتراق والتوهج الريف بين ١٨٦٠ و١٩٢٠**، منشورات دار الجسور، وجدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٤٠.

(١٣) اليوسفي، عبد الرحمان، "**مؤسسات جمهورية الريف**" ...، م. س.، ص. ٩٨.

(١٤)لوكاس، خوسي كاريس، "**يوميات الملازم خوسي كاريس لوكاس رئيس الفرقة البحرية بجزيرة النكور من ٢٤ يوليوز ١٩٢١ إلى شتنبر ١٩٢٥**"، **جريدة الاتحاد الاشتراكي**، العدد ٦٥٨٦، ١٦غشت٢٠٠١.

(١٥)لحليبي، أحمد، "**قراءة تاريخية لملحمة: ادهار ابران**"، مجلة أمل، العدد (٨)، ١٩٩٦، ص ٢٩.

(١٦)بلقاضي، محمد محمد عمر، **أسد الريف: محمد بن عبد الكريم الخطابي**، مطبعة ديسبريس. تطوان، ١٩٧٩ ص ٩٤. ٩٥.

(١٧)الإدريسي، علي، **عبد الكريم الخطابي التاريخ المحاصر**، منشورات تيفراز، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠١٠، ص ٧٨.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٧٩.

(١٩)الخطابي، عز الدين، **معركة أنوال والتنظيم الحربي العصري**، السياسة الجديدة، فبراير، ١٩٩٨، ص٥٨.

(٢٠)ذي ماداريكا، ماريا روسا، **في خندق الذئب: معارك المغرب**، ترجمة: كنزة الغالي، مطبعة دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٠، ص ١٢٤.

(٢١)ابن عزوز، حكيم محمد، **معركة أنوال**، مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر، الرباط، ١٩٨١، ص ٣٢.

(٢٢) المرجع نفسه، ص ٤٨.

(٢٣)بلقاضي، محمد عمر، **أسد الريف: محمد بن عبد الكريم الخطابي**...، م. س.، ص ١١٤-١١٥.

(٢٤) ابن عزوز، حكيم محمد، **معركة أنوال** ...، م. س.، ص ٤٩.

(٢٥) ذي ماداريكا، ماريا روسا، **في خندق الذئب** ...، م. س.، ص ١٢٤.

(٢٦)عياش، جرمان، **أصول حرب الريف**، ترجمة: محمد الأمين البزاز، عبد العزيز التمسماني خلوق، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٢، ص ٣٤٤.

(٢٧) ابن عزوز، حكيم محمد، **معركة أنوال** ...، م. س.، ص ١٠٣.

(٢٨) ذي ماداريكا، ماريا روسا، **في خندق الذئب**...، م. س.، ص ١٢٩.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

(٣٠)بلقاضي، محمد محمد عمر، **أسد الريف: محمد بن عبد الكريم** ...، م. س.، ص ١١٧.

(٣١)العلمي، محمد، **زعيم الريف: محمد بن عبد الكريم الخطابي**، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٢٨.

(٣٢)بلقاضي، محمد محمد عمر، **أسد الريف: محمد بن عبد الكريم** ...، م. س.، ص ١٢١.

(٣٣) ذي ماداريكا، ماريا روسا، **في خندق الذئب**...، م. س.، ص ١٣٣.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ٦٧.

(٣٥) مرتين، مكيل، **الإستعمار الإسباني في المغرب** ...، م. س.، ص. ٨٢.

(٣٦)الداودي، محمد، "**ملاحظات حول مقال الحرب الكيماوية في الريف**"، جريدة ثفراز ناريف، العدد ١٤، يونيو ٢٠٠٤، ص ٢٠.

(٣٧) المرجع نفسه، ص ٢٠.

(٣٨)خرشيش، محمد، **المقاومة الريفية**، سلسلة شراع، العدد (٢٢)، دجنبر ١٩٩٧، ص ١٤-١٥.

(٣٩)بلقاضي، محمد محمد عمر، **أسد الريف: محمد بن عبد الكريم الخطابي**...، م. س.، ص ١٧٩.

(٤٠) خرشيش، محمد، **المقاومة الريفية** ...، م. س.، ص ١٧.

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٨.

(42) Robert Montagne, **les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, Paris, 1930.

(٤٣) عياش، جرمان، **أصول حرب الريف** ...، م. س، ص ٢٤.

(٤٤) فورنو، روبرت، **عبد الكريم أمير الريف**...، م. س.، ص ١٧٥-١٧٦.

(٤٥) خرشيش، محمد، **المقاومة الريفية** ...، م. س.، ص ٢٩.

(46) Bernard, Laugan, **Histoire Du Maroc**, Ed. Criterion, paris, pp. 256-257.

(٤٧)بوراس، عبد القادر، "**ليوطي ومواقف الحماية الفرنسية من حرب الريف ما بين ١٩٢١ و١٩٢٥**"، مجلة أمل، العدد (٨)، السنة الثالثة، ١٩٩٦، ص ٨٢.

(٤٨) فورنو، روبرت، **عبد الكريم أمير الريف** ...، م. س.، ص ١٣٨.

(٤٩) خرشيش، محمد، **المقاومة الريفية** ...، م. س.، ص ٩٠.

(٥٠)الموافقة على النزول في الحسيمة لم يتم إلا بعد نقاش طويل خاصةً وأن الخسائر التي مني بها الاستعمار الإسباني في شفشاون قد قوى الرأي العام لصالح سياسة بريمو دي ريفيرا الخاصة بالانسحاب من مراكش.

(٥١)أغزادي، لحسن، **ابن عبد الكريم الخطابي وحرب الريف (١٩٢١-١٩٢٦)**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٨٩-١٩٩٠، ص ٢٣٢.

(٥٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٤.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ٢٣٦.

(55) **The Times**: Interview of Abdelkrim, 12 Octobre 1925.

(٥٦) خرشيش، محمد، **المقاومة الريفية** ...، م. س.، ص ٩٠.

(٥٧)**يقول الجنرال سيمون**: "يجب على مبعوثي القبائل أن يبينوا من أنابهم للمفاوضات التمهيدية التي فتحونا بها منذ بضعة أيام فإن كانوا نوابًا عن القبائل الريفية والجبلية فسيروننا مستعدين لاستقبالهم ومحادثتهم، وإن كانوا نائبين عن عبد الكريم مجرد قائد بني ورياغل وليس له الحق أن يتكلم باسم الجماعة أو يوفد من قبله مَنْ يتكلم باسمها".